التقرير اليومي

٢٠٠٧/٩/٦

مختارات من الصحف ومراكز الدراسات الدولية

الفعل ورد الفعل المضاد في مبارزة أحمدي نجاد وبوش

بقلم جورج فريدمان؛ ستراتفور

قال الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد في ٢٨ آب بأنّ القوة الأميركية في العراق يتم تدميرها بسرعة. ثم قال بأنّ إيران، بمساعدة الدولة العراقية وأصدقاء إقليميين، مستعدة لملء الفراغ. وقد طاول أحمدي نجاد في كلامه العربية السعودية تحديداً بقوله أنّ السعوديين والإيرانيين بإمكانهما التعاون في مسألة إدارة أمور العراق. ولاحقاً ذاك اليوم، رد جورج دبليو بوش بالقول: "أريد من مواطنينا أن يدرسوا ما قد يحصل إذا ما سُمح لهذه القوى الراديكالية والمتطرفة أن تقودنا الى خارج الشرق الأوسط. فالمنطقة ستتحول بشكل دراماتيكي وبطريقة بإمكانها أن تعرض العالم المتحضر للخطر". وذكر بالتحديد إيران وخطر أسلحتها النووية.

وكنا قد قلنا في ٢٧ آب، بسبب قدرة الولايات المتّحدة المحدودة في توفير الأمن للعراق، بأنّ "الهدف الإستراتيجي" يجب أن يتحول الآن من السيطرة على العراق الى الدفاع عن شبه الجزيرة العربية ضد أية طموحات إيرانية محتملة في ذلك الإتجاه. "مهما كانت الأخطار التي حصلت في الماضي، فإنّ الواقع الحالي يقول بأنّ أي إنسحاب من العراق سيخلق فراغاً يمكن أن تملأه إيران بسرعة"، هذا ما كتبناه حينها.

أما تصريحات أحمدي نجاد، التي أدلى بها في مؤتمر صحفي دام ساعتين، فلا علاقة لها بما كتبناه كما ليس لذلك علاقة برد بوش. فما تظهره هذه التصريحات بالفعل، رغم ذلك، هو السرعة التي يتطور بها التفكير في طهران بالرد لجهة الفهم الإيراني لمسألتي تعليق الإنسحاب الأميركي وفراغ السلطة في العراق– وكيف تحول إدارة بوش تركيزها من التهديد السني الى التهديدات الشيعية.

أما أهم ما ناقشه أحمدي نجاد في مؤتمره الصحفي فلم يكن مسألة فراغ السلطة، وإنما العربية السعودية. فقد طاول كلامه السعوديين قائلاً بأنّ بإمكان إيران والعربية السعودية، معاً، ملء الفراغ في العراق وجعل البلد مستقراً. ولم يكن المعنى المقصود والمفهوم ضمناً من هذا التصريح فقط بأنّ إيران لا تشكل تهديداً للعربية السعودية، وإنما كان المقصود بأنها ستكون مستعدة لتعزيز السلطة السعودية بإعطائها دوراً أساسياً في حقبة العراق ما بعد أميركا. إذ تقول إيران بأنّ العربية السعودية ليست بحاجة للدفاع عن نفسها ضد إيران وبأنها، بالتأكيد، ليست بحاجة للولايات المتّحدة لإعادة نشر قواتها على طول الحدود السعودية– العراقية للدفاع عن نفسها. وفي حين تقوم بالتلويح بجزرة المشاركة في عراق ما بعد الحرب، تقوم إيران أيضاً بإستخدام عصا مبهمة وماكرة. فإحدى أسباب تشكل القاعدة كان الوجود الأميركي في

العربية السعودية خلال حرب الخليج الأولى. فالإسلاميون الراديكاليون في العربية السعودية إعتبروا الوجود الأميركي بمثابة تدنيس للأرض كما إعتبروا إستعداد النظام السعودي للسماح للجنود الأميركيين بالتواجد هناك على أنه كفر وتجديف. وبعد ٩/١١، طلب السعوديون من الولايات المتّحدة سحب قواتها، وشن السعوديون، عقب غزو العراق، حرباً شعواء ضد القاعدة داخل المملكة. لذا، فإنّ قيام الجنود الأميركيين بالدفاع مجدداً عن العربية السعودية– حتى ولو كانوا متموضعين خارج حدودها– سيشعل العواطف الحماسية داخل المملكة، وقد يؤدي إلى زعزعة النظام. فالسعوديون في موقع مختلف. فمنذ الثورة الإيرانية، والعلاقة السعودية مع إيران تتذبذب من العدائية القصوى الى التحفظ والإرباك. إن المسألة ليست، وببساطة، مسألة سنة وشيعة. فإيران ليست حكومة دينية فقط، فهي برزت من خلال ثورة شعبية واسعة ضد الشاه، ومرتبطة بفكرة جمهورية إسلامية، لتدمج بذلك تقليد الثورة الغربية مع الفلسفة السياسية الشيعية. أما العربية السعودية، من جهة أخرى، فهي عبارة عن حكم ملكي يستمد سلطته من الهيكليات القبلية والعشائرية التقليدية ومن الإسلام الوهابي في شبه الجزيرة العربية. وقد شعر السعوديون بأنهم عالقون في الفخ بين راديكالية العراقيين والسوريين ما بعد الإتحاد السوفياتي وفتات الحركة الفلسطينية المختلفة من جهة، وبين الجمهورية الإسلامية في إيران من جهة أخرى. وكون العربية السعودية كانت معزولة، حيث لم يكن لديها سوى الولايات المتّحدة لتعتمد عليها، إنفجر ذلك الإعتماد في وجهها خلال حرب ١٩٩٠– ١٩٩١ في الكويت.

لكن هناك مشكلة جيوبوليتيكية أساسية أيضاً. فالعربية السعودية تعاني من مرض مميت عادةً. فهي غنية بشكل إستثنائي وضعيفة عسكرياً. وقد تدبرت أمرها بالبقاء والإزدهار عن طريق جعل دول خارجية، كبريطانيا والولايات المتّحدة، تراهن على إستقلالها– وضمان ذلك الإستقلال بقوتها. فإذا لم تكن في وارد الإعتماد على قوة خارجية لحمايتها، وكانت تمتلك موارد عسكرية محدودة، عندها كيف ستحمي نفسها من الإيرانيين؟ أما إيران، ذات الجيش الكبير– والذي كان كبار ضباطها وضباط صفها قد خضعوا للإختبار في الحرب العراقية/ الإيرانية– فليس لديها جيش كبير وحسب، وإنما هو أكبر بكثير من الجيش السعودي وصاحب خبرة أكثر.

وتلقف السعوديون العرض الإيراني. أما المشكلة، فهي أنّ العرض لا يمكن ضمانه بالقوة السعودية، وإنما يعتمد على إستعداد إيران التعامل بشرف مع العرض كضمان له. فبغياب الولايات المتّحدة، يعتمد أي تعاون مع إيران على إرادة إيران. كما أنّ الإيرانيين مختلفين، وبعمق، عن السعوديين، والأهم هو أنهم أكثر فقراً بكثير. فمهما كانت نواياهم اليوم– ومن الذي بإمكانه أن يقول ما ينويه الإيرانيون– فإنّ هذه النوايا قد تتغير. وإذا ما فعلوا، فإنّ ذلك قد يترك العربية السعودية عرضة لخطر القوة الإيرانية.

فالعربية السعودية عالقة بين المطرقة والسندان، وهي تعلم ذلك. لكن قد يكون هناك بدايات حل في تركيا. فعرض أحمدي نجاد للتعاون كان موجهاً نحو قوى إقليمية غير إيران. وهذا يشمل تركيا، فتركيا ظلت واضحة من مسألة الغزو الأميركي للعراق، رافضة أن يقوم الجنود الأميركيون بغزو العراق إنطلاقاً من أراضيها. وعلى كل حال، فإنّ لتركيا بعض المصالح الهامة في الكيفية التي ستنتهي بها حرب العراق. أولاً، هي لا تريد رؤية أي نوع من أنواع الدولة الكردية، متخوفة من إنفصالية كردية في تركيا أيضاً. ثانياً، إنّ لتركيا مصلحة في النفط شمال العراق، وكلا المصلحتين يمكن خدمتهما بإحتلال تركي لشمال العراق تحت مظهر كاذب بدعوى إستقرار العراق الى جانب إيران والعربية السعودية.

وعندما نقول بأنّ إيران هي الآن القوة الإقليمية المهيمنة، فإنّ علينا القول أيضاً بأنّ ذلك صحيح إلا إذا أضفنا تركيا الى الخليط. فتركيا بالتأكيد قوة مطابقة عسكرياً لإيران، وهي أكثر من بلد إقتصادي. فإقتصاد تركيا يقع بالمرتبة ١٨ عالمياً– أكبر من العربية السعودية– وهو يتنامى بسرعة. لذا فإنّ إيران، من أوجه كثيرة، بحاجة الى علاقة جيدة مع تركيا، بسبب قوتها وإقتصادها. فإذا كانت تركيا تريد العمل على مصلحتها في العراق، فإنّ ذلك بالتأكيد سيكبح شهية إيران. وفي حين أنّ تركيا لا يمكنها الدفاع عن العربية السعودية، فإنّ بإمكانها، بالتأكي، تهديد مؤخرة إيران إذا ما إختارت التحرك جنوباً. ومع التهديد بالتدخل التركي، سيكون على إيران أن تكون حذرة جداً بالطبع. إلا أنّ تركيا كانت دوماً حذرة بتدخلاتها الإقليمية. وليس واضحاً ما إذا كانت ستورط نفسها في العراق بما يتخطى التأكد بأنّ الإستقلال

الكردي لن يمضي بعيداً جداً في سبيله. وحتى لو كانت ستتحرك بشكل أعمق داخل العراق، فمن غير الواضح ما إذا كانت مستعدة لمحاربة إيران لحساب العربية السعودية، ومن جهة أخرى، لا تريد تركيا التعامل مع إيران قوية– وإذا ما قام الإيرانيون فعلاً بأخذ حقول النفط السعودية، فإنهم سيكونوا أكثر من مجرد قوة مطابقة بالنسبة لتركيا. إنّ نظام تركيا مختلف جداً عن ذاك الموجود في العربية السعودية وكذلك إيران، إلا أنّ الجيوبوليتكا تصنع حلفاء غريبين. فإيران لا يمكنها مقاومة تدخل تركي شمال العراق كما لا يمكنها التأكد من رد فعل تركيا إذا ما تحولت إيران جنوباً. هذا الغموض يقيّد إيران ويكبحها .

هذه إذن هي القشة الضئيلة التي سيعتمد عليها الأمن القومي السعودي إذا ما رفضت السعودية وجوداً أميركياً في منطقتها الشمالية. فالولايات المتّحدة ستفرض نفسها بأية طريقة، لكن أن تكون عالقة بين إيران والعربية السعودية المعاديتان لها، فإن ذلك لا يُعتبر أمراً حكيماً، هذا على أقل تقدير. ولذلك، فإنّ بإمكان السعوديين إغراق قوة إعتراض أميركية إذا ما رغبوا بذلك. وإذا ما قام السعوديون بهذا الأمر وإنضموا الى برنامج الإستقرار الإيراني في العراق، عندها سيكونوا مجبرين على الإعتماد على الوجود التركي في شمال العراق لكبح أية خطط إيرانية مستقبلاً حول السعودية. وهذا ليس بالضرورة رهاناً آمناً، حيث أنّ ذلك يفترض بأن يكون الأتراك مهتمين بصنع توازن مع إيران في وقت تعود فيه القوة الروسية الى القوقاز، وتتنامى القوة اليونانية في البلقان، بالإضافة الى أنّ الإقتصاد التركي يتطلب الآن إهتماماً أكبر من أنقرة وأكثر من أي وقت مضى. إذن، وببساطة، لدى تركيا الكثير من الأصناف والأنواع الأصلية بينما يراهن السعوديون على الصنف الإيراني كأولوية الذي ليس إلا رمية بعيدة.

وقد بدأ الموقف الإيراني يصبح أكثر تعقيداً في الوقت الذي تحاول فيه طهران صياغة تحالف ما بعد الحرب لتدير أمور العراق– ولتوفير الضمانات للتحالف بأنّ إيران لا تخطط لإبتلاع بعض أعضائه. وتبدو الولايات المتّحدة، في هذه الأثناء، على أنها تحاول تبسيط موقفها عن طريق التركيز مرة أخرى على السؤال المتعلق بالأسلحة النووية. وقد إتبع خطاب بوش هذا المنطق. أولاً، وبحسب بوش، يظهر الإيرانيون الآن بمظهر التهديد المساوي للجهاديين. بمعنى آخر، إنّ النظام الديني الإيراني والقاعدة هما تهديدان متساويان، وهذا هو السبب الذي يجعل الإدارة تشير الى تسمية الحرس الثوري الإيراني كمجموعة إرهابية. ولذلك، فإنّ إنسحاباً ما من العراق سيحول العراق بإتجاه إيران، وهذا بدوره سيؤدي الى تحول المنطقة. لكن بدلاً من مناقشة التساؤلات الجيوبوليتيكية التي كنا متمسكين بها بقوة، ركز بوش على القدرة النووية لإيران.

وتقوم إيران بتطوير أسلحة نووية، برغم أننا كنا قد ناقشنا دوماً بأنّ إيران لا تتوقع تحقيق صنع سلاح نووي قابل للقذف فعلاً. وذلك يعود بالدرجة الأولى الى أنّ عملية بناء سلاح نووي صغير كفاية وعاصف كفاية، ليكون مفيداً، هو أمر معقد تماماً. فهناك قفزة كبيرة بين إختبار سلاح ما وإمتلاك سلاح قابل للعمل. بالإضافة الى أنّ إيران، وهو الأمر الأهم بكثير، تتوقع قيام الولايات المتّحدة أو إسرائيل بتدمير مواقعها النووية قبل الإنتهاء من صنع السلاح. فالإيرانيون يستخدمون برنامجهم النووي كورقة مساومة.

أما المشكلة، فهي أنّ المفاوضات قد إنتهت وإختفى معها مفهوم المتاجرة الإيرانية بالبرنامج النووي مقابل تنازلات أميركية في العراق، الى جانب إختفاء المفاوضات. ولذلك، أكد بوش على أنّ ليس هناك من سبب يدعو الولايات المتّحدة لضبط نفسها بشأن البرنامج النووي الإيراني. وقد لا تكون إيران قريبة من الحصول على سلاح قابل للقذف. إلا أنّ المخاطرة كبيرة جداً بجعلها تتابع تطوير برنامج الأسلحة النووية. ولذلك، فإنّ جوهر خطاب بوش كان يعني بأنّ الإنسحاب سوف يزيد، وبشكل هائل، من قوة إيران وبأنّ سلاحاً إيرانياً ما سيكون أمراً كارثياً.

من هنا، قد يفكر المرء بأنّ الولايات المتّحدة تدرس مسألة مهاجمة إيران. بالواقع، إنّ التحذير الفرنسي ضد هجوم كهذا يؤشر الى أنّ باريس قد تكون إلتقطت شيئاً ما أيضاً. وبالتأكيد، فإنّ واشنطن تشير بأنّ الولايات المتّحدة مجبرة، بسبب الوضع في العراق وتأكيد إيران بأنها ستملأ الفراغ، على مواجهة إمكانية شن هجوم ضد مواقع إيران النووية. وهناك مشكلتان هنا. الأولى هي سؤال تقني عما إذا كان

بإمكان ضربة تقليدية إقتلاع كل مواقع إيران النووية. ونحن لا نعرف الإجابة على ذلك، لكننا نعلم بأنّ إيران كانت حذرة من إمكانية شن هجوم كهذا، وهي، على الأرجح، قد إتخذت الإحتياطات اللازمة، بدءاً من خلق الغموض حول ما يتعلق بمواضع المواقع وصولاً الى تحصينها. أما المشكلة الثانية، فأكثر جدية.

وعلى فرض أنّ الولايات المتّحدة هاجمت ودمرت مواقع إيران النووية، فإنّ المشكلة الجيوبوليتيكية لن تتغير. فالموقف الأميركي في العراق سيظل صعباً للغاية، كما أنّ الخيارات الثلاث التي كنا قد ناقشناها في ٢٧ آب، ستظل في مكانها، وبحسب الخطة، فإنّ إيران ستملأ الفراغ الذي ستتركه الولايات المتّحدة. لذا، فإنّ تدمير المواقع النووية الإيرانية لن يعالج أياً من هذه المسائل.

لذلك، فإنّ ما يتضمنه خطاب بوش هو إمكانية إتخاذ إجراءات أوسع ضد إيران. وهذه الإجراءات قد تشمل حملة جوية واسعة ضد البنية التحتية الإيرانية– العسكرية والإقتصادية– وحصار مرافئها. ولا يمكن للإجراءات أن تتضمن وجود جيش بري لأنّ ليس هناك من قوات أساسية متوفرة، كما أنّ إعادة نشر كل الجنود الموجودين في العراق ودفعهم نحو إيران سيؤدي إلى وضع ١٥٠٠٠٠ جندي في بلد كبير جداً، هذا مع وضع القضايا اللوجستية جانباً.

إن بإمكان الولايات المتّحدة، بالتأكيد، القيام بحملة جوية ضد إيران، لكن ذلك يذكرنا بدرس سلاح الجو الأكبر الذي تعلمناه من سلاح الجو الإسرائيلي ضد حزب الله في صيف ٢٠٠٦: أنّ سلاح الجو ناجح بشكل هائل عندما يعمل بالتنسيق مع عملية موحدة للجيش، لكن لديه محدودية شديدة عندما يطبق لوحده. فالفكرة القائلة بانّ الدول تستسلم بسبب الألم الذي تخلفه حملة جوية ليس له أساس تاريخي كبير. فهو لا يحصل عادة. وعلى خلاف حزب الله، على كل حال، تعتبر إيران دولة حقيقية ذات بنية تحتية ومصالح إقتصادية وممتلكات وذخائر عسكرية ومرافئ مدنية هامة وحقيقية– كلها ذات مواقع معروفة يمكن ضربها بقوة بإستخدام سلاح الجو. أما الولايات المتّحدة، فقد لا تكون قادرة على فرض إرادتها على الأرض، لكن يمكن بالتأكيد إلحاق مقدار كبير من الألم بإيران. وبالطبع، فإنّ حرباً جوية شاملة بإمكانها أن تُقعد إيران وتُعجزها بطريقة تجعل أسعار النفط العالمية تخترق السقف– بما أنّ إيران لا تزال رابع اكبر مصدّر عالمي للنفط.

وعلى كل حال، إنّ الحصار يمكن أن يشكل معضلة. فمن السهل منع مرور السفن الإيرانية من والى المرفأ– وعلى خلاف العراق، ليس لدى إيران خيارات سهلة لتحويل تجارة الطاقة البحرية الى طرق برية– لكن ما الذي ستفعله الولايات المتّحدة لو أبحرت السفن الروسية، الصينية والفرنسية هناك؟ هل ستحتجزها؟ تغرقها؟ من الواضح أنّ كلاهما ممكن. لكن كم هو مقدار مروحة الأعداء الذين تريد الولايات المتّحدة التعامل معهم في وقت واحد؟ وتذكروا بأنّ المناطق البرية للبلدان المجاورة لإيرانسيكون عليها، مع إغلاق المرافئ، المشاركة بإعاقة حركة مرور البضائع. ونحن نشك بأن هذه الدول ستكون متعاونة لهذه الدرجة.

أخيراً، والأهم، تملك إيران القدرة على مكافحة أية تحركات أميركية. إذ لديها ذخائرها في العراق التي بإمكانها أن تزيد من عدد الضحايا الأميركيين بشكل دراماتيكي إذا ما أُمروا بذلك. كما لدى إيران قدرات إرهابية ليست بالعادية أو القليلة الشأن. ويمكننا القول بأنّ قدرات إيران هي أكبر، وبشكل أساسي وهام، من تلك التي للقاعدة. فبظل شن حملة جوية، سوف يستخدم الإيرانيون هذه القدرات.

إنّ تهديد بوش بضرب الأسلحة النووية يعتبر منطقياً فقط في سياق حملة جوية وبحرية واسعة ضد إيران. ومع وضع التعقيدات السياسية المحلية والإرتدادات الديبلوماسية الدولية جانباً، فإنّ المشكلة الأساسية هي أنّ إيران بلد كبير جداً، حيث هناك الكثير من الأهداف الواجب ضربها. وهذا قد يستلزم أشهراً عدة لتحقيقه، وخلال ذلك الوقت من المرجح أن تقوم إيران برد الضربة في العراق وربما في الولايات المتّحدة أيضاً. إنّ حملة جوية ما لن تجعل إيران تركع بسرعة، إلا إذا كانت نووية– ونحن لا نعتقد أنّ الولايات المتّحدة ستقوم، وببساطة، بخرق التابو النووي.

إنّ الولايات المتّحدة في مأزق صعب أيضاً. ففي حين أنّ من المنطق إطلاق التهديدات رداً على التهديدات الإيرانية– للمحافظة على إبقاء طهران خارج التوازن– فإنّ المهمة الحقيقية بالنسبة للولايات المتّحدة هي إقناع العربية السعودية بأن تظل على إعتقادها بأنّ التعاون مع

إيران خطر جداً، وإقناع تركيا بإتباع غرائزها في شمال العراق من دون التعاون مع الإيرانيين. فالأتراك ليسوا أغبياء ولن يلعبوا، ببساطة، اللعبة الأميركية، لكن كلما كانت تركيا أنشط، كلما كان على إيران أن تحذر أكثر.

إنّ التصريح الأخير الصادر عن أحمدي نجاد يقنعنا بأنّ إيران ترى ثغرة لها. أما الولايات المتّحدة، حتى ولو كانت لا تخادع بشأن هجوم ما ضد إيران، فإنها ستجد أنّ هجوماً كهذا هو أقل فاعلية مما ترجوه على كل حال. ففي النهاية، وحتى بعد حملة جوية موسعة، فإنها ستصل الى هذه الحقيقة. إذ لا يهم، في النهاية، عدد التحركات التي تمت، لأنه سيكون على الولايات المتّحدة أن تحدد إستراتيجية ما بعد العراق، وعلى تلك الإستراتيجية أن تركز على منع إيران من تهديد شبه الجزيرة العربية. فحتى بعد شن حملة جوية واسعة فإنها ستعود الى هذه الحقيقة. أما في حالة الحرب، فإن الموقع "الآمن" الوحيد بالنسبة لقوات برية أميركية لإتخاذ إجراءات إحتياطية إزاء أي تحرك إيراني ما ضد منطقة شبه الجزيرة العربية سيكون الكويت، البلد الذي يفتقر الى العمق الإستراتيجي يعمل كمضاد فعال.

لقد قام أحمدي نجاد بحركته الكلامية، ورد عليه بوش. أما الآن، فتتكثف الديبلوماسية الإقليمية في الوقت الذي أصبح فيه تقرير أعلى قائد أميركي في العراق، هو الجنرال دايفيد بترايوس، جاهزاً ليتم تقديمه للكونغرس في ١٥ أيلول.

Research Services Group
www.ipileb.com